ديانة المحتل في شعر مفدي زكرياء

أ.د. عباس بن يحي
كلية الآداب واللغات – جامعة محمد بوضياف بالمسيلة- الجزائر

الملخص:

يتعلق الأمر في هذا البحث بدراسة إشكالية نظرة المقاوم – بشكل عام والشاعر المقاوم بالخصوص– إلى دين المحتل. فإذا كان الاستعمار الفرنسي قد تبنى مقولات خطاب الحروب الصليبية، فإن الثائر الجزائري هو الآخر قد استمد مشروعية مقاومته من خلفية دينية، ومنه، فإنه يحق التساؤل إن كانت النخبة قد ميزت بين الديانة الحقيقية كتنوع طبيعي وبين استعمالها في مسعى الاحتلال من أجل التبرير والتعبئة وإخفاء الأغراض الحقيقية للكولونيالية.

الكلمات المفتاحية: مفدي زكرياء– دين الآخر– الشعر والمقاومة– الثورة

Résumé:

Il s'agit dans cet essai d'étudier le regard du résistant - en général et en particulier le poète résistant - envers la religion de l'occupant. Si la colonisation française a adopté les citations du discours des croisades, le révolutionnaire algérien a lui aussi tiré la crédibilité de sa résistance d'un fond religieux. De ce fait, il est légitime de chercher si l'élite a fait la distinction entre la vraie religion autant que différence évidente, et son utilisation dans la tentative de l'occupant pour la justification, la mobilisation et la dissimulation des vrais objectifs de la colonisation.

Mots clés: *Moufdi Zakaria- la religion de l'autre- la poésie et la résistance- la révolution*

في مقدمة أول كتاب يؤرخ للشعر الجزائري الحديث قال الزاهري: " ***وهل الجنة إلا وطن حر ورجال أحرار*؟!**" [1]، قد تكون هذه مجرد عبارة عادية مما يجري على أي لسان، غير أن مسعى المؤلف في تأليف ونشر الكتاب كان يضمر خطة ناجحة لترميم ما أتلفه الاستعمار، ولاستعادة ما حاول القضاء عليه. ثم لماذا تحضر (الجنة) إلى جنب (الوطن)؟ ولماذا لا يمكن تصور (الجنة) خارج الوطن؟. بعبارة أخرى فهي إشارة ما، كأن الدين والوطن متلازمان بشكل أو بآخر، أو كأنه لم يمكن ممكنا تصور الجزائر حرة وبدين آخر.

لقد تعلمنا أن الحروب القديمة أضرت بحرية العبادة، فإذا استثنينا حالات احترمت فيها أديان الجميع، فإن الحروب الصليبية وحروب الاسترداد مثلا قامت على مبدأ (التطهير)؛ ذلك أن دين الآخر اعتبر خلالها تهديدا، ومن أجل القضاء عليه اعتبروا كل معتنق له (كافرا- مهرطقا). غير أن ثورات التحرير الحديثة نشأت في ظروف مغايرة، ولم تعد تستهدف (المخالفين) بقدر ما تهتم باستعادة السيادة على الأرض المسلوبة.

لكن المشكلة تكمن في أن الصراع بين المستعمر وأصحاب الأرض سينطلق أولا وقبل كل شيء من ذات مختلفة؛ أي من ذات تدين بدين يقع في مقابل دين المحتل، وسيتأصل العداء إذا كان للصراع جذور وتراث من المآسي والحروب. وتأخذ المقاومة إذن تجذرا لا يمكن إنكار موقع الدين فيه. إن الأمر يتعلق هنا بمحاولة الإجابة عن السؤال الآتي: **كيف ينظر شاعر مقاوم يشكّل الدين أحدَ عناصر مقاومته إلى الأديان الأخرى؟** وبالخصوص إذا تعلق الأمر بدين -أو أديان- يتبناها مستعمره.

سيشتغل البحث على هذه الإشكالية، لكنه من الضروري فهم موقع الدين في فعل المقاومة نفسها أولا.

1- **شعرية المكوّن الديني في الصراع والمقاومة** (الدين كمكون للشخصية ورافد من روافد المقاومة).

ما الذي يحتاجه المقاوم غير دافعية روحية تحقق وتضمن له سموا لفعله (العنيف) وانسجاما مع معتقداته؟. فقد ينجرف الإنسان بالفعل إلى عمل (عنيف) بدوافع مختلفة، لكن ضميره – والدين بالطبع من أهم عناصره- لا يتوقف عن كشف اللامعنى في فعله فقط بل وإدانته أيضا، مما يُرسِّخ ويديم الإحساس بالذنب والجرم الذي ينتظر القصاص منه. لكننا حين نضفي صفة (العدالة) على القضية التي نتج عنها الفعل (العنيف)، فإن الضمير ينتقل من مصدر للتبكيت والتأنيب إلى مصدر للتقبل والتشجيع والحماس. إن اعتماد المقاومين في أدبياتهم للغة شديدة الصلة بالدين، كالجهاد والشهادة والتضحية وما إليها، لمؤشر قوي على هذه النقلة والتحول في فعل الضمير، والمسألة هنا هي حسم تام لقضية الرضا، بل إن هذا التماهي مع الدين ينقل الفعل إلى مستوى التضحية المشروعة والواجبة، التي تضعها الديانات على أعلى سلم القيم وسلم المكافآت الأخروية، وهذه الفكرة هي بالضبط ما اتخذ كمبرر لقرون من الحروب الصليبية والتهجمات والتعصب القاتل، رغم أن الفكرة العادلة لم تكن دائما وراء هذا السلوك، بل كثيرا ما استغلت من أجل تحقيق أهداف هي في أصلها مرفوضة من المنظومة الفكرية والعقائدية التي يتبناها من انطلقوا لحرب (مقدسة) بدافع الإيمان والطاعة. **وباختصار فإن الضمير – بهذه الصفة- سيتقبل تبرير العقل والقلب للفعل العنيف إذا ارتبط بالدين.**

لم يخل الشعر العربي منذ الصدر الأول للإسلام من التماهي مع العنصر الديني في فعل المقاومة والحرب، بل إنه عصر تأسيسها. ومن المتيسر للباحث تأصيل تحقيب يتتبع رسوخ هذا العنصر وتجلياته الدائمة والمستمرة عبر تاريخ الصراع الإسلامي، وعلى الأخص في مسار صراع الإسلام مع المشركين وخلال الفتوحات الإسلامية؛ لأن" عنصر الدين في بداية الإسلام ارتبط بالهوية وسط الصراع بين ضفتين أو معسكرين، **فإذا كان تمايز الهويتين من الناحية الفنية غير ممكن، فإن الدين سيشكل الهوية الجديدة لمجموعة تقاتل من أجل الوجود،** فالمسألة السياسية لا تجد تعبيرا ممكنا لها إلا في نطاق الصراع الديني، ومن ثم يأخذ أهمية خاصة في النص الشعري" [2].

"إن عنصر الدين في فترة الصراع الأولى بين المسلمين وغير المسلمين، كان يشكل تجسيدا للهوية، ويرتبط بها، وقد تكون أبيات نهار بن توسعة أكثر وضوحا للتعبير عن مكانة المكون الديني في تشكيل الهوية، وهي قوله [3]:

أبي الإسلام لا أبَ لي سواه إذا هنَـــفوا ببَكر أو تميم
دَعِيُّ القوم ينصر مُدّعيــه فيُلحقه بذي النسب الصميم
وما كرَمٌ ولو شَرُفت جُــدود ولكنّ التقِــيَّ هو الكريــم

لنلاحظ هنا أننا بصدد كشف عملية تكثيف للعنصر الديني وذلك باعتماد الشاعر استراتيجية تقوم على عملية بناء وهدم من خلال تقابل مكونين هما طرفا الصراع؛ أي أنه يبني هوية جديدة ويؤسس مشروعيتها وينقض في الآن نفسه الهوية التقليدية، وهي هنا هوية مناوئة، يصادمها ويهدمها، فأبوة الإسلام هي نقيض ومقابل للأب الرمز في القبيلة، والتقوى مقابل النسب. فيغدو الإسلام هوية توحد الأجزاء، والتقوى هو وحده مصدر الشرعية.

2- استعمار وصليبية:

إن شعر المقاومة الجزائرية شديد التماهي مع البعد الوطني في الدين أو البعد الديني للوطنية. ومن الواضح أن معجما ولغة جماهيرية ومثقفة أيضا قد تأسست بسبب الهجمة الفرنسية على الجزائر في 1830، التي كشفت منذ دخولها عن طابع عسكري لحملتها لكنها استبطنت شعورا صليبيا ودينيا واضحا، عكسته التصريحات والأفعال. ففي 1827 كان جاسبار دي كليرمون تونير *Gaspard de Clermont-Tonnerre (1779-1865)* يقدم تقريره المطول إلى ملكه شارل العاشر الذي اختارته حسبه العناية الإلهية " لينتقم للدين" [4] " وكل شيء يدعو للاعتقاد أن حربا صليبية حقيقية توشك أن تندلع أو أنها بالأحرى قد بدأت" [5] ثم يتوسل إليه في نهاية التقرير أن يأمر بالغزو، بل إن المؤرخ والرحالة الفرنسي بوجولا *Baptistin Poujoulat (1809-1864)* وصف حملتهم لاحتلال الجزائر بقوله:[6] "**فحربنا في إفريقيا إذن هي استمرار للحروب الصليبية**"، ويقول: " **لا يمكن للمسلم المنهزم أن يحب المسيحي المنتصر**" [7] وكتابه يطفح بروح صليبية لا مثيل لها. وإن أمثاله

لكثيرون، كما أن أعمال التعدي على الدين الاسلامي ومحاولة تعويضه بالنصرانية بعد احتلال الجزائر لعديدة [8].

ويبدو أن هذه الرسائل قد وصلت آنذاك بوضوح إلى الجزائريين، فقد كتب مثقف جزائري بارز غداة الاحتلال يصف موقف الجزائريين وشعورهم فقال: " **سكان الإيالة يتصورون أن الفرنسيين لا يحاربونهم إلا بدافع التعصب الديني** وهي فكرة تولد لديهم أعمال العنف التي يقومون بها ضد المساجين... كل هذه الأسباب ساهمت في إقناعهم أكثر فأكثر بأن الفرنسيين لا يتصرفون إلا بدافع الانتقام والحقد الديني" [9]. ووصف الأمير عبد القادر (1808-1883) الوضع بأنه " عظم به الخطب، واشتد به الكرب، بوطن الجزائر الذي صار لقربان الكفر جزائره، وذلك أن العدو الكافر يحاول ملك المسلمين مع استرقاقهم، تارة بالسيف وتارة بحبال سياستهم" [10]. **فهم يدركون أن الاحتلال ليس فعل آلة صماء، بل إنه منظومة ومؤسسة متكاملة تستهدف الشخصية نفسها وتدمر التاريخ**، ولذلك يتوجب استدعاء مكونات الشخصية من أجل إغناء فعل المقاومة وتكثيفه وتبريره أيضا.

كل هذا خلق لدى الجزائريين والمسلمين عموما منظومة من المعاني والصور والمشاعر التي تربط دائما بين الاستعمار واللاإسلام (النصارى- الكفار- الرومي..)، وهي في حقيقتها امتداد لمنظومة البنية الفنية والفكرية التي تأسست خلال أحداث الأندلس والحروب الصليبية والهجمات الأوروبية الحديثة على الجزائر ووهران. هذه المنظومة والتراث الكبير ستترسخ على مر العصور في أعماق لاشعور المواطن الجزائري والمسلم بشكل عام. فإذا قرأنا قصائد مغربية مثلا عبرت عن موقف المثقف المغربي من احتلال فرنسا للجزائر، فإننا سنجدها تتأسس على نفس منظومة القصائد التي قيلت في هجوم المسيحيين على مسلمي الأندلس، ولنأخذ نموذجا من قصيدة مطولة كتبها محمد غريط (...-1863) [11]:

مالي أرى جمع أهل الغرب وَسْنانا من بعد ما أخذ الرومي تلمسانا
كأنهم ما دروا ماذا يُراد بهم عَدوُّ دينهِمُ لا نال إمكانا
ولا على فعله في دِفتر وقفوا بأهل أندلس يا بيس ما كانا
لا عذر للمسلمين في التكاسل عن جهاده حِسْبةً منهم وإيمانا.. [12]

وفقا لهذا النص، فإن احتلال العدو للمكان المسلم هو اعتداء على الدين، وغزو يذكّر بما فعله المعتدي (الرومي) سابقا قديما وحديثا، ومنه تأتي ضرورة المقاومة الجهادية. وهي نفس مكونات البنية الفنية لما سمي بنصوص الاستصراخ خلال هجمات المغول والصليبيين وحملات التطهير الديني في الأندلس، وتتنزل ضمن نصوص المقاومة، وستظل تتراكم وتتناسل ضمن نفس البنية العامة المحتفظة بالموقع المتميز للبعد الديني. هذا التناص مع نصوص الاستصراخ هو إعادة

لربط الانسان بما يحمله في أعماقه من تاريخ لبشاعة العدوان والاحتلال، فأخذ (تلمسان) لا يختلف في جوهره وآثاره ونتائجه عن أخذ مدن أخرى سابقا.

بعد تصويره للخراب الذي حل بالجزائر، يقول محمد بن الشاهد الجزائري (1737-1844) الذي عاصر الاحتلال:

فآهٍ على جهدي وما [بي] منعة وآهٍ على دار يسُـــود بها غيــري
أموت وما تدري البواكي بقصتي وكيف يطيب العيش والأنس في الكفر
فيا عينُ جودي بالدموع سماحة ويا حزنُ شَيِّـــد في الفؤاد ولا تَسْـر [13]

ومن الواضح أن فقد الأرض (المكان) وتحكم الآخر فيها وامتلاكه لها، قد أقصى ونفى أصحابها وحرمهم منها، ولذا يتوقع (الشاعر/المواطن) أن يموت غريبا مبعدا لا يعرف أهله قصته. لكن الملفت أن الشاعر يتحول مباشرة ودون وعي إلى مدلول أعمق، ومن المعنى السياسي إلى المعنى الديني، حين ينسب احتلال الأرض والسيادة على المكان إلى الكفر، وهو ما يحزنه ولا يتصور إمكانية قبوله.

يحس المواطن صاحب الأرض إذن أن المكان قد سلب منه، ورغم أن ما سلب منه إنما هو الفضاء الذي يعيش فيه، وينعم بالأمن والخيرات، فإنه كذلك هويته؛ أي جذوره وتاريخه وثقافته. ولهذا فإنه من الصعب حقا فصل دافع المقاومة السياسي والاقتصادي عن الثقافي والديني، **كأنَّ المقاوم يولد مكتملا سياسيا ودينيا** في الوقت نفسه. ولهذا تساءلت **فاني كولونا** *fanny colonna (1934-2014)*: " **من الذي قام بتكوين كوادر رجال المقاومة "دينيا"** والذين كان الكثيرون منهم من أبناء الأوراس؟" [14]. وبالطبع لا يقصد هنا العامل الديني أو العاطفة الدينية الساذجة؛ إذ ليس الدين وحده عامل المقاومة [15] بل المقصود أن فعل المقاومة حين يتشكل وينطلق فإنه يبني مقاوما واعيا سياسيا، وراضيا دينيا، وممتلكا لخطاب متجذر، له أصوله ومنابعه وتراثه.

3- الشعر والدين والمقاومة:

لم يمنع مرور قرن أو يزيد على احتلال الجزائر من نقل التراكم الضخم من هذا التراث المقاوم ذي الخلفية الدينية، الذي ازداد توسعا ورسوخا وكثافة يوما بعد يوم إلى مفدي زكرياء (1908-1977). وقد كان كشاعر ومثقف يحس فعلا بهذا البعد الديني لفعل المقاومة. ولهذا يتردد معنى مباركة الله للثورة، حين يحول الجزائر إلى رسالة سماوية أو كيان مقدس، كتبها الشعب وأقرها الله:

إن الجزائر في الوجود رسالةٌ الشعبُ حَـــرّرها وربك وقعا [16]

وبذلك يكون النداء للمقاومة وتحرير الجزائر فعلا قداسيا أشبه بالاستجابة لنداء الصلاة؛ لأن المقاومة تغذيها روح الإيمان، فتتحول إلى ارتباط خفي بين الانسان والله:

شعبٌ دعاه إلى الخلاص بُناته فانصبَّ مذ سمع النداء، وتطوعا
نادى به جبريل في سوق الفدا فشَرى وباع، بنقدها وتبرعا [17]

إن تركيب البيتين مبني على تصوير معقد، عموده الفقري التناص مع القرآن الكريم حين يدمج نص الآية بتمديدها في نصه، فيفكك عناصرها لتتوزع ويعيد تموضعها داخل نصه هو؛ إذ يحول النداء إلى الثورة إلى معادل لنداء جبريل الممثل للسماء. وبعبارة أخرى فإن الشعب سمع من خلال نداء الثوار الأوائل نداء الله يعرض صفقة البيع والشراء المعروفة في القرآن الكريم[18]، فقبل الصفقة وانطلق مسرعا لتحقيقها.

والشهادة صلاة، والشاعر مجرد مسمّع فيها؛ أي ناقل لها إلى من لم يسمعها من الغائبين أو البعيدين [19]:

سمع الذبيح (ببربروس) فأيقظتْ صَرَخَاتُه، شعرَ الخلود فلعلعا
ورآه كبَّـر للصـــــلاة، مُهلِّـــلا في مذبح الشهدا، فقام مُسمّعا

يتضح مما سبق، أن مفدي ينسجم تماما مع المفهوم الديني الذي شرع المقاومة وأصّلها كبنية عقائدية (أو إيديولوجية) من جهة، ومع مختلف تقاطعات هذه البنية ورموزها من جهة أخرى.

يقول في أحد مقاطع الالياذة:

شربتُ العقيدة حتى الثماله فأسلمت وجهي لرب الجلاله
ولولا الوفــاء لإسلامـــنا لَمَا قرر الشعــب يوما مآله
ولولا استقامَـــة أخلاقــنا لما أخلص الشعب يوما نضاله
ولولا تحالُـفُ شعبٍ ورَبٍّ لما حققَ الرب يوما سؤالــه
هو الدين يغمُــر أرواحنا بنور اليقين ويرسي العداله
إذا الشعب أخلف عهدَ الإله وخان العقيدة، فارقُبْ زواله [20]

يقرأ أحد الباحثين في هذا النص توظيفا للدين كمحرر للإنسان، ويقول [21]: " *وظف (الدين) كرسالة عظيمة هدفها تحرير الإنسان وانبعاثه وانعتاق (الحق) الإنساني من سلاسل الظلم والطغيان...هو لا يعلن عن إسلامه كفرد بل يتحدث عن إسلام أمته بأكملها، وفوق ذلك يصرح أن سبب استقلال الجزائر يعود إلى ارتباط الأمة بالإسلام الذي هداها إلى طرق التحرر*". وهذا يوضح ما أسلفناه، من أن مفدي يربط بين الوفاء للدين وبين الثورة، فالدفاع عن الأرض هو مما يلزم الدين به أتباعه، لأنه عهد الإله، ولذا الإلحاح على الشرط وتكراره (ولولا .. لما)، فالمقاومة (وفاء للدين – استقامة أخلاق– عمق إيمان– حفظ لعهد الله)، وكأنه في غياب دافعية العقيدة الصحيحة لا يتحقق الدفاع عن الوطن.

لكن هذا المنظور للدين لدى الشاعر المقاوم هو الذي سيطرح مشكلة هامة تتعلق بفحص موقفه المشبع بالخلفية الدينية المبررة للثورة، من الأديان الأخرى خاصة ديانة المحتل. وبمعنى آخر، **هل سينتج عن مقاومته المغذاة من العقيدة الاسلامية عداء لدين المستعمر وتهجم عليه،**

أم أن النخبة قد تمكنت في مقاومتها من الفصل بين فعل المستعمر الهمجي والصليبي وبين ديانته (المسيحية)؟

هذا ما يتطلب تحليلا وتمعنا في النصوص.

4- الشاعر والمسيحية:

إن مفدي متماه مع المنظومة الاسلامية ومع مختلف مكوناتها ذات الصلة بالمقاومة وبحرمة الوطن وشرعية التعلق به، لكنه **يبقى منسجما مع هذه المنظومة نفسها في نظرتها إلى الأديان الأخرى**؛ إذ تلزم أتباعها بمعاملتها باحترام وتقدير وبالتعايش معها. فينتقل بذلك إلى موقف نخبوي وعقلاني متميز؛ إذ أن التماهي مع المنظومة المؤسسة للمقاومة لم ينته به إلى توليد تعصب أو تهجم على الديانات الأخرى، **إنما تعامل معها وفق منظور تنويري متقدم، انطلاقا من روح الاسلام في معاملته لها**، وهو ما يجعل هذا الموقف إسلاميا أصيلا إضافة إلى كونه تنويريا [22].

ومنه، فقد لا يكون غريبا أن لفظ (الكفر) وما يشتق منه لوصف دين ما، غائب تماما في شعر مفدي (اللهب والإلياذة)، ولم يرد سوى أربع مرات، يوضحها الجدول الآتي:

النص	معنى الكلمة	السياق
ويا لجة يستحم الجمال ويسبح في موجها الكافر [23]	الستر	الموج كالرداء يستر الأشياء
كفر الأولى قالوا الشمال ثلاثة ودعوا إلى إذلاله بالنار [24]	الخطأ	زيف تقسيم المغرب العربي
فكم كنت يا رحمن في الشك غارقا فآمنت بالرحمن في الثورة الكبرى وكم كنت بين (الكاف والنون) حائرا ومذ قلتها- يا رب- جنبتني الكفرا[25]	عدم الثورة هو خروج عن الدين	الثورة تحفظ من الكفر
أحبها، مثل حب الله، أعبدها آمنت بالله، لا كفر ولا نزق [26]	حب الوطن إيمان	قوة حب الوطن وشدة التعلق به ليست كفرا

ومن الواضح أنه لا علاقة للفظ (الكفر) في اثنين منها بمعنى الخروج عن الدين أو مخالفة الإسلام؛ أي أنهما جاءا بمعنى الستر، وزيف تقسيم المغرب العربي، أما في الثالثة فبالتأكيد على أن الثورة تحفظ من الكفر، في حين يرتبط معنى نفي الخروج عن الدين في الرابعة بالمشاعر الانسانية، ولم يستعمل اللفظ للتهجم على أي دين حتى ولو كان الدين الذي يدعي المستعمر خدمته. وإذا تتبعنا شعر مفدي فإننا سنجد أن الأمر لا يتعلق بمناورة أو مراوغة للمستعمر أو للرأي العام، بل إنه مبدأ متأصل يستعيده كلما طرحت قضية تعدد الأديان، أو مسألة الاستعمار والمسيحية.

إن الديانة المسيحية لا تظهر إلا ضمن دائرة الشرق والعالم العربي، ولا تجلي لها ضمن دائرة الغرب أو المستعمر، ولهذا أخذت أبعادا ودلالات إيجابية، وبدت منسجمة مع الدين الإسلامي، وترد غالبا معه في سياقات يحرص مفدي على أن تكرس مبدأ التعايش والتلاؤم والتلازم. فتزول كل الظلال القاتمة التي صحبت فترات الحروب الصليبية أو الاستعمار، وتحل محلها معادلات تتأسس على صور التواؤم التي ينتقيها من المكان والتاريخ ومن مبادئ الأديان نفسها نفسه. يقول حين يصف لبنان:

وجنة فَيحَـــاء، في رحْبِـــها كنيسة، تلتف بالجامع [27]

ويضيف:

يا مهبط الأديان في قدسها ينسجم الراهب، بالراكع [28]

حينما ينظر الشاعر، فإنه يرى الكنيسة ملتفة بالجامع، بجنبه، حيث ينسجم المؤمنون ويتوجهون إلى رب واحد على اختلاف دياناتهم، وهو ما يحوّل المكان إلى قدس يختلف عن كل الأمكنة. ليست القداسة إذن في وجود الجامع وحده فقط أو الكنيسة وحدها، لكن تنزل الرسالات في مكان واحد، واستمرارها متجاورة يصنع فرادة المكان. إنه فضاء روحي سماوي، كأنه قطعة من عالم علوي غير بشري، **وهو الشرق الذي لم تفسده مادية الغرب وإيديولوجياته الاستعمارية اللاإنسانية، إنه موطن ومحل الدين المسيحي الصحيح.**

من هنا يبدأ تجاوز المشكلة؛ لأن المنطلق هو أن مصدر هذه الديانات واحد وأنها تبادلت الرعاية والإحسان على مر العصور، فتغدو مضرب الأمثال. **وهذا التراث الضخم من المسيحية المحلية ومن التعايش هو جزء من ذات الشاعر وثقافته، وأحد العناصر المكونة لموقفه،** ففي حديثه عن مدينة فاس يقول:

والتقَـى عقبـــةٌ هنا وابن زيـــــــــــــادٍ وموسى، يصممون الجدارا
(قصرُ فرعون) ضمه (قصر طه) مثلما أكرمَ الهلالُ النصارى [29]

هذا فضاء فريد متميز التقى فيه الجميع، ورغم أن الحاكمين كانوا مسلمين إلا أنهم ضموا الآخرين وأكرموا النصارى. وهي الصورة نفسها تقريبا يستعيدها في وصف زلزال أغادير سنة 1960 فيؤكد (التقاء) الجميع:

أَمّتِ الدنيا إلى نَجْـدتِها والتقى فيها هلال وصليب [30]

إن الأسماء المختارة هنا (عقبة- ابن زياد- موسى- فرعون- طه) هي معالم ونصوص تختزنها الذاكرة وتؤسس المنطلقات والمبادئ الأساسية، وقد قام الشاعر بعملية (تطهير) أو انتقاء، حيث تختفي النقاط السوداء في التاريخ المشترك وتطفو النقاط المضيئة فقط، ويمنح الصليب دلالة إيجابية، وكأنه يحدد تراثه في مسألة الأديان. والحقيقة أن لدينا تفاعلا مزدوجا مع التراث الديني، قلما يدركه المتدين نفسه؛ إذ أن مفدي يقرأ التراث والذات ممثلة في الدين الاسلامي من خلال

النظرية والتاريخ، وممثلة أيضا في الدين المسيحي من خلال النظرية الإسلامية والتاريخ أيضا، أي أنه يستمده نظرته للإسلام وللمسيحية معا من الاسلام نفسه.

وبعبارة أخرى؛ يحس أنه معني بالمسيحية كمسلم حقيقي مستنير، ولهذا يتصور النسب والأصول والثقافة الجزائرية بشكل مختلف، فيقول:

أولئك آباؤنا منـــذ عيسى وكان محمـــــدُ صهـــرا لعيسى
..لئن حارب الدين خبث النفو.....س، فلم يغمط الدين هذي النفوسا
ولم نَكُ ننـــــكر آباءنـــا أكانوا نصارى!! أكانوا مجوسا!!
وهل كان بربَـــر إلا شقيقا لجُرهُـــــم؟ هلا نسينا الدروسا؟
إذا عَرَّب الديـــن أصلابنا فما زال أحمد صهرا لعيسى! [31]

وعمل على ترسيخ الفكرة في موضع آخر:

ونحترم الكنيسة في حمانا ونحترم الصوامع والقبابا
وكان محمد نسبا لعيـــسى وكان الحق بينهما انتسابا
وموسى كان يأمر بالتآخي وحذر قومه، مكرا، وعابا [32]

وهذه مسألة أساسية؛ لأن تاريخ المسلم لم يعد يبدأ من مبعث النبي محمد (ص)، بل يعود إلى أول رسالة سماوية عرفها البشر، فكل الأنبياء آباؤه، وهم يحضرون في رموزه دون أي إحساس بالتناقض أو الحرج. نقرأ صور هذا التاريخ في قوله:

ورثنا عصا موسى فجدد صنعها حِجانا، فراحت تلْقف النار لا السحرا
وكلم موسى الله في الطور خفية وفي الأطلس الجبار كَلمنَـــا جهرا
وأنطق عيسى الانس بعد وفاتهم فألهمنا في الحرب أن ننطق الصخرا
وكانت لإبراهيم بَـــردا جَهنـــمٌ فعلَّمنا في الخطب أن نمضغ الجمرا [33]

إن سلسلة الصور التي تكون النصوص السابقة مبنية على رمزية ودلالة أيقونات ترسخت في الضمير الجمعي لديانات متعددة، لكنها صادرة عن تراثه الخاص؛ ولهذا يلح على تملك هذه العناصر (أباؤنا– صهر– شقيق– ورثنا..). وهذا التوحيد بين هذه الأديان في ذاته وتبني مكوناتها التي ترتد إلى التراث الاسلامي، مكنه من توليد الصورة المتداولة في قصيدته حول الشهيد أحمد زبانا:

قام يختال كالمسيح وئيدا يتهادى نشوان يتلو النشيدا [34]

فقد تقدم الشهيد إلى المقصلة كما سيق المسيح إلى الصلب، والأفق هنا مفتوح أمام القاريء ليعطي هذا التشبيه المعنى الذي يبني نصه الخاص؛ كأن الشهيد يشبه المسيح في الرضا والصبر، أو في الثبات، أو في الإيمان بالقضية، أو في هدوء المسيح..). لكنه يعود بعد عدة أبيات فيستمد من نفس الحادثة صورة مهمة لمشروعه حول خلود الشهيد:

زعموا قتله .. وما صلبوه، ليس في الخالدين عيسى الوحيدا
لفَّه جبرئيل تحت جنــاحَيْــــــــــــه إلى المنتهَى رضيًّــــا شهيدا

إنه يعمل هنا على إعادة التوازن الفكري والروحي للصورة انطلاقا من المضمون القرآني (زعموا قتله وما صلبوه..). إن التقنية المستعملة هنا متميزة جدا؛ إذ لم يقع مفدي في النثرية الفجة، أو الوعظية الجافة، أو التعصب لمبدإ (وما قتلوه)، بل فضل تمديد الصورة فعاد إلى الفكرة انطلاقا من بؤرة النص (خلود الشهيد)؛ فإذا كان الشهيد لم يقتل بل إنه خالد ﴿ بَلْ أَحياءٌ عندَ ربِّهِمْ يُرزقون﴾ [35] فكذلك المسيح ﴿ وما قَتَلُوه وما صَلَبوه ﴾ [36]. وبعبارة أخرى فإن الشهيد خالد لا يقتل باستمراره حيا في ضمائر الشعوب وتاريخها، مثل المسيح الذي لم يتمكنوا من صلبه. والمغزى الأساسي من كل هذا أن مفدي وحد هنا بين المسيح ورموز الإسلام، ولا يهمه كشاعر ملتزم مقاوم ومستنير الدخول في جدال لا مبرر له فضلا عن تخصص آخرين فيه، بل يتجه رأسا إلى هدفه فيكون الشهيد ملكا لكل الأديان.

يمكن لكل هذا أن يكون مقبولا كونه جزءا بشكل ما من تراث الإسلام، لكن ماذا عن الكنيسة؟ هل سيبقى ضمن نفس الرؤية حين يتعلق الأمر بها؟

ينبغي أن نعتبر أن ورودها في نص سابق (ونحترم الكنيسة في حمانا) لا يعطيها الدلالة التي نستهدفها، إذ لا تأخذ 'لا دلالة العنصر الخارجي غير الأصيل؛ إذ قد تقرأ على أنه احترام لشيء موجود عندنا لكنه يبقى أجنبيا لغيرنا. لأنه نوع من التكرم أو التسامح الذي شاع في مبادىء الاسلام وتاريخ دوله. لكنه سبق للشاعر أن أقر معنى متميزا هو أن جزءا من تاريخنا وآبائنا ونسبنا وهويتنا مسيحي، فهل تبقى الكنيسة عنصرا خارجيا؟ أم أنها ستنضم إلى العناصر الداخلية؟

لنقرأ ما يقوله عن كنائس العاصمة ومسيحييها:

سَلِ الورد يحمل أنفاسها لحيدرَ مثل الحظوظ البواكر
وأبيارُ تزهو بقديســـها (رفائيل) يخفي انسلال الجآذر
تباركه (أم إفريقـــــيا) على صلوات العذارى السواحر [37]

يمكن لمن لا يعرف صاحب هذه النصوص أن يعتقد أنه مسيحي؛ إذ تلبّس الخطاب روح الانسان المسيحي وهويته الدينية. لكنه لا يتحدث بصيغته الانفرادية بل يتكلم باسم المجموع، سواء تعلق الأمر بحي من أحياء العاصمة أو بالجزائريين جميعا، فهم يفتخرون بتراثهم المسيحي، يقول:

وهذا أوغستنس بالاعترافــاتِ حير –عبر الزمان– الفهوما
وأسقف بونةَ أصبح قديــس قرطاج مذ بث فيها العلوما
وكان أغستنس فخرَ البــلاد، وكان بها الفيلسوف العظيما [38]

وهكذا صار التراث المسيحي في الجزائر ملكا لأهلها ومفخرة لهم، تتجاوز فرنسا وتفرض نفسها في العالم المسيحي كله؛ لأن الأمة المسيحية تعرف أهمية أوغسطين *Saint Augustin (354– 430 ق*

م) وموقع أعماله في المتون المؤسسة لعقيدتها وديانتها بشكل عام. وبعبارة اخرى فإن المسيحية ملك للجزائريين وليس للاستعمار.

إن الشاعر **يعيد لحم علاقة تاريخية بين الجزائريين والمسيحية**، علاقة كانت تبدو منعدمة أو مختصرة في صدام أو صراع قديم بينهما. وليست مجرد دلالة على التسامح فقط، بل إنها علاقة تماه مع جزء هام من تراث الجزائريين يجعلهم شركاء في المسيحية ويجعل جزءا من تراث الجزائر رافدا من روافد الديانة نفسها. ولهذا يمعن في إبراز تقبل عناصر من الثقافة المسيحية لدى الجزائري والمقاوم خصوصا حتى يدمج نوفمبر بالمسيح:

نوفمبر حدثنا، عهدنَـــاك صادقا ألست الذي ألهمت أحجارنا النطقا؟
ألست الذي، كنت المسيح بأرضنا؟ وأشرفـــت من علياك تخلقنا خلقا؟
..ألست الذي، ناديت حي على الفدا؟ فقمنا نخوض النار، والنور، والحقا؟ [39]

ليس ضروريا أن يكون المرء مسيحيا حتى يتقبل بُعدَ الميلاد والبعث في الصورة، فكتاب المسلم (القرآن الكريم) أفرد هو نفسه لميلاد المسيح حيزا هاما، ونوه به حدثا عرف ميلاد منقذ جديد للبشرية، والشاعر يبعث المسيح ليلة أول نوفمبر مناديا بنداء الاسلام (حي على)، فهو مسيح فريد ولد ليلة أول نوفمبر ونادى بشعار المسلمين. هاهنا لا يتناقض الدينان ولا يصطدمان، فالعنصران مندمجان في ضمير الشاعر المقاوم.

3- **كسر الأسطورة الصليبية المؤسسة للاستعمار** (أو مشكلة تماهي المسيحية والاستعمار):

اتضح سابقا أن الفعل (العنيف) يتطلب خلفية عقائدية (أيديولوجية) تبرره لينسجم الضمير مع الممارسة، وهو ما لم تخل منه الدعاية الاستعمارية، إضافة إلى مفاهيم أخرى روجت لها؛ كمهمة تحضير وتمدين (مخلوقات) متخلفة واستكشاف العالم وما إليها. غير أن البعد الديني يبقى مهما؛ كونه يتكفل بالرضا الداخلي مما يجعله يؤدي وظائف مختلفة. والغريب أن المحتل سيجد تراثا من العنف الديني (الصليبي) يعتمده كمرجعية ماضوية ليضفي مشروعية على الحاضر. فإذا عدنا إلى ما قرأناه من نصوص المخططين للغزو، فإننا نجدها تستعيد الحروب الصليبية وتمجد الحرب الدينية وتقدسها، فيمكن أن نلاحظ بيسر كيف استغل الاستعمار الديانة المسيحية في تعبئة الجنود والمواطنين.

يبدو أن مفدي كان يدرك هذا الخطاب ومكوناته جيدا، ويدرك أيضا موقعه ضمن استراتيجية الاستعمار نفسه، ولهذا عمل – كما مر – على إبراز موقع المسيحية في الدين الاسلامي وفي الثقافة الجزائرية، لكنه ركز على تفكيك ارتباط المسيحية بالاستعمار التي حاول المحتل بناءها واستثمارها في حملته التوسعية. ورغم أن المهمة صعبة بالنسبة إلى موقعه كشاعر مسلم مقاوم، إلا أن تناقضات الاستعمار مع المسيحية نفسها في ادعاءاته، جعلت مهمته غير مستحيلة، ووفرت له العناصر التي يتمكن بها من تفكيك خطاب المحتل وإحراجه أمام الجماعة المسيحية. فمناسبة مولد

السيد المسيح مثلا، مكرسة لدى مسيحيي العالم أجمع كمحطة لإفشاء المحبة والرحمة والتسامح، لكنها في الجزائر شيء آخر:

ويا ابنَ مريم في ذكراك موعظـــة لو أنها تلهم الرشـــد المجانينـا؟
إن يحسب الفاتكان السلمَ فلسفـــة ففي الجزائر من بالفتك يغزونا [40]

وكأن مفدي يتكلم بصوت المسيحي المخلص، فيتمنى لو أن ذكرى ميلاد المسيح تفيد المستعمرين فيستلهموا قيمها، فليست الدعوات إلى السلام مجرد كلام ترسله الكنيسة؛ إذ أن بعض أتباعها المحتلين للجزائر مجانين وقتلة. وبعبارة أخرى فإن سلطان الموعظة ينهار أمام جبروت المحتل بل إن صوت الفاتكان نفسه بلا صدى.

وإنه لمن الغريب فعلا أن يسكت العالم المسيحي عن هذه الجرائم ويمتنع عن التدخل وعن تطهير المسيحية من الاستعمار البغيض بل ولا يعبأ بما يرتكبه، ولهذا يصعد مفدي لهجته أمام هذا التناقض:

.. ما للصليب على الجدران يزعجهم؟ ومن إبادة شعب لا يثـــورونا؟ [41]

فالتغيير في شكل الصليب إلى صليب معقوف مزعج كونه اعتداء على رمز ديني وعلى العقيدة بينما لا ينزعج أحد لما يرونه يوميا من احتلال شعب وإبادته. إن هذا السلوك يضرب المسيحية نفسها في صميمها إن لم تجعل مسافة بينها وبين سلوك المحتل ونواياه. ومن الواضح أن المسيحية كدين لا تقبل بهذه الجرائم لكن من يدعي اتباعها لا يتورع عن ذلك:

أتأتون الجرائـــم سافِـرات فضائح، تهتـــكون بها الوقارا
قد احمرَّ الصليب لها حياء وضج لها ابن مريم والنصارى [42]

إنها فرصة أخرى لرجل الدين نفسه، إذ يطرح مفدي وعيا متميزا يفصل بين الدين وأفعال المحتل، فالجرائم غير مقبولة لدى الصليب والمسيح والنصارى الصادقين أنفسهم. ويبدو أن هذه المسألة مركزية في الصراع، وكانت النخبة الجزائرية والعربية على وعي تام بها. لقد كتب الفضيل الورتلاني (1900–1959) مقالا ضافيا عن براءة المسيحية من الاستعمار، نقرأ فيه: "لم تظلم نسبة في تاريخ البشرية –فيما نعلم– مثلما ظلمت نسبة المستعمرين الفرنسيين إلى المسيحية الطاهرة، وإلى نبي الرحمة عيسى عليه السلام .. ويحزننا أن ينتسب إليها زورا وبهتانا قوم من الملاحدة كالاستعماريين الفرنسيين، أقفرت قلوبهم من الايمان والرحمة، وشقيت بهم العائلة الانسانية أسوأ شقاء، ولا هم لهم في هذه الدنيا إلا الاتجار بالدماء والحروب في سبيل الاستعمار والشهوات الحيوانية، أولئك قوم يبرأ منهم المسيح عليه السلام وتبرأ منهم المسيحية الكريمة، ومع ذلك، فلا يستنكفون في سوق تجارتهم الحقيرة، أين عرَّضوا هذه الرسالة الخالدة إلى الإهانة، فينسبون همجيتهم، إلى الحضارة المسيحية الطاهرة.. وكأن المسيح أخيرا يبارك هذه الأدوار الوحشية التي يمثلها الاستعمار الفرنسي على مسرح الجزائر العربية" [43]، وتحدث عن تبرأ المسيحيين المخلصين

من أفعال الاستعمار وتوقف عند موقف لبنان الذي روجت فرنسا إلى أنه مؤيد لاستعمار الجزائر فنقل مقالات للبنانيين مسيحيين يستنكرون هذا الزعم ويرفضونه [44].

لقد ركز الشاعر كثيرا على فكرة خيانة الاستعمار للمسيحية، وهو يستغل مرة أخرى الوقائع التاريخية الثابتة ليستبطن تحولات الفكر الاستعماري وتماهيه مع الهمجية الصليبية. ففي السبب المعلن للاستعمار يقول:

وجاعت فرنسا.. فكنا كراما وكنا الأولى يطعمون الطعاما
.. فباعت فرنسا ضمير اليهود، فباع ضمير اليهـــود الذماما
وما كان بوشناق إلا ابن آوى وما كان بوخريص إلا طغاما
.. وصب النفايات في أرضنا **وخان المسيح**، وأغرى السواما [45]

فمسألة ديون فرنسا عن ثمن القمح المستحقة للجزائر هي لحظة تاريخية مجيد للجزائريين، إذ قابلوا جوع فرنسا بكرمهم التاريخي، أي أنهم أحيوها وأنقذوها من الجوع فقوبل إحسانهم بالاحتلال. إن الفكرة تتوسع في ذهن مفدي ليعود إلى الوسيط اليهودي الذي باع ضميره وخان المسيح.

ليست العلاقة إذن بين الاستعمار والمسيحية إلا علاقة استغلال ودعاية، فهو يموه صورته القبيحة ويحسنها بالدين في نطاق خطاب شعبوي وديني أصولي يقوم على إحياء الصراع الهمجي القديم من جهة، ويحاول استمالة الكنيسة التي مازالت محترمة آنذاك من قبل الجمهور. ومن أجل ضبط استراتيجيته التي تتضمن أيضا استهداف الدين الاسلامي المحلي، فإنه ينقلب على الطابع العلماني واللاديني لدولة الثورة الفرنسية ويخدع مؤسسة الكنيسة بإغرائها بواسطة فتح طريق تخدم فيه السياسة الاستعمارية ظنا أنها تخدم الديانة المسيحية، ولا بد أن بعض قادة الكنيسة قد تورطوا في سياسة الهيمنة هذه.

سنقرأ في عدد من نصوص مفدي إحساسه وإحساس الجزائريين العميق بخطر استهداف الاستعمار لعقيدتهم. لكنه يبقى ضمن منظوره الفكري الراسخ؛ من حيث التفرقة بين المسيحية الحقة وما يفعله التنصير المنبثق من استراتيجية الاستعمار. وهو عمل تطوع للقيام به عدد من المبشرين مستهدفين أطفال الجزائر، ففشلوا، يقول:

وخامر دوبري صداع السكارى وزلزلَـــه عزمُـــنا، فتَـــوارى
وحاول **تنصيـــرَ أطفالـــــنا** بأرض فرنسا، فَـبَـاء خسارا
فخمس وعشرون ألفا تَحَـدّى بإيمانها الواهمين الحيـــارى
وأخلص إســـــلام أكبـادنا بأرض فرنسا فكان الجـــدارا
وآمن أشبالنا بالجهـاد، فعا.....فوا الخُنوع، وخاضوا الغمارا
.. وكان الفرنسيس صُما وبكما وعُميا، فأصغى لنا من تمارى
وما كان عيسى ظلوما جهولا وكان محمد يرعى النصارى [46]

هذه قصة استعادها ليبين تجذر العقيدة وتلخص الصراع الذي اصطنعه المحتل في مسعاه من أجل استسلام الجزائريين، فإذا كانت العقيدة حائلا دون مسعاه فإنه من الواجب القضاء عليها، ولكنها في النهاية جرائم المستعمر وليس المسيح أو محمد، فهما غصنان من شجرة واحدة.

مادام التنصير تمكينا للاحتلال فإن الجزائري يحتمي بعقيدته؛ لأنها هي التي تبين له خطأ الحملة وخطأ شعاراتها، ومن هنا تتحول العقيدة إلى حصن، يقول:

وعن العقيدة زوّروا تحريفه فأبى مع (الإيمان) أن يتزعزعا [47]

لقد اختصر تاريخ الصراع هنا بين الفعل ورد الفعل (زوروا– فأبى). ويتحول الرفض إلى مقاومة داخلية للأطروحة المصاحبة لخطاب المحتل؛ لأنها تصطدم بقناعة عميقة راسخة. إن هذا العمق والرسوخ يحطم كل ما قامت به مؤسسة الاحتلال رغم امتلاكها كل الوسائل في سبيل خطتها، يقول:

وأعيا المبشرَ عمق العقيده فلم تُجدِ فينا المساعي الحميده
ولا عسلٌ في طَوايـــاه سُمٌّ ولا البذل يخفي الشرور المبيده
ولا أن يطــوف بأبوابـــنا ومن خلفها عَزمَـــات وطيده
ولا بالأناجيل تنشَـــر فينا فتصبح بالوضع غير مفيـــده
فحسب المبشر قرن ونصف تجاربُ للزيْـــغ كانت بليـــده
فإيماننا شامـــخ كعُـــلانا ونظرتنا فيه ظلَّـــت بعيـــده
.. وأحرى[48] أن نبشِّـــر فيـكم بإسلامنا، والمبادي الرشيـــده [49]

هذا المقطع جزء من (ملحمة) إلياذة الجزائر، وهو بالفعل مقطع ملحمي يعلي من القوة البشرية في صراعها مع قوى الشر، التي انفتح لها المجال بامتلاكها الأرض (المكان)، والزمان (قرن ونصف)، والوسائل اللامحدودة (المساعي– البذل– الخطط الخفية– توزيع الأناجيل..). ولم يكن لدى المواطن المستعمر إلا إيمانه يقاوم به كل هذا الهجوم الشرس. ورغم أن الحرب لم تكن متكافئة إلا أن عمق العقيدة وثبات الايمان أهَّلهم إلى النصر. إن مفدي يكتشف أن المستعمر يقدم مسيحية أخرى؛ مسيحيته هو المتجبرة والزائغة، بينما ظل الجزائري محافظا على المباديء الرشيدة التي يتقاسمها الاسلام مع المسيحية الحقيقية، ومن هنا فإن الأولى أن يقوم الجزائري (بالتبشير) فيهم لأن ما سيقدمه لهم هو المسيحية الصحيحة.

لكن المشكلة ليست في الدعوة إلى عقيدة مختلفة، فهو مسلك حواري بين الديانات تعود عليه الجزائريون منذ عصورهم القديمة، يقول:

وأَعْلَتْ بجاية هَام الجزائـــــر، علمًا وشادت صروح الهنا
وبَارَى ابنُ سَبعينَ فيها النصـارى، فأَفحَم من لاحقوا ظلنا [50]

فصورة تفوق عبد الحق ابن سبعين (614 هـ-669 هـ) أثناء إقامته ببجاية على المسيحيين خلال المناظرات والجدال تكرس عمق العقيدة وتجذرها، ولكنها صورة تقابل خطط الاستعمار ومن دعمه من رجال الكنيسة لهدم عقيدة المواطنين الجزائريين وتحويلهم إلى دين آخر طوال تواجده. والمغزى أن المسيحي في دولة الجزائر المسلمة قديما كان يجادل ويحاور في إطار سلوك حضاري وممارسة تثاقفية مفتوحة للجميع، لكن الجزائري المسلم في دولة الاستعمار يواجه بالفعل العنيف التطهيري مثلما كان الحال خلال فترة محاكم التفتيش، وإن اختلفت الوسيلة.

إن مسألة الحوار والاعتراف بالآخر صورة يستعيدها مفدي ويقيم سلوك الغرب من خلالها، وقد لاحظ أن بعض المستشرقين -رغم علمهم- قد وقعوا في حبال الصليبية،يقول:

ومستشرقون أحبـوا الجـلالا ومستشرقون، أشاعوا الضـلالا
فمَن أنصفونا، وقالوا صوابا وشــدوا إلى ملتقانا الرحـــالا
ولم يُــنقصوا قَـدر أجدادنا تَخِذناهــمُ قُـــدوة ومثـــالا
وأكْـــبرَ إنصافَهم شعـــبُنا ولم ينكر العلم فيهم خصـــالا
ومن ألبسوا الحق حقدا دفينا وألقى الصليب عليهم ظـلالا
وكانوا طَوابيـــرَ مستعمرينا وكانوا مخاضَ الليالي الحبالى
دعوناهمُ للجِـــدال النزيــه، وقلنا لهم لا نهـــاب الجدالا
فإن أنصفوا العلم والحق قلنا: نفوس رجال تُجِـــل رجالا
وإن طمس الحقد أبصارهم نبذناهمُـــو، وسحبنا السؤالا
وبالدَّم نكتُـــب تاريخَـــنا ونبلغ - بالعدل فيه - الكمالا [51]

لكن ماعلاقة الاستشراق بالصليب؟. إن بعض المستشرقين هم صورة عن علماء المسيحية المنصفين الذين تحلوا بالعلم وفضائل وشروط الحوار، فكانوا منصفين ينزلون عند حكم الموضوعية ونتائج العلم، مما جعل الشعب يجلهم ويتعلم منهم بل يتخذهم قدوة، لكن البعض الآخر الذي هو (أحد طوابير الاستعمار) مشبع بالصليبية أعماه الحقد فانطمس بصره ولم يعد هناك مجال لنقاشه ومحاورته. إن فئة العلماء هذه ابتعدت عن الموضوعية ونزاهة الرجال، وارتضت لنفسها موقع خدم الاستعمار فكتبت الحقد والزيف، ولذلك فإن الشعب العادل سيكتب تاريخه بالدم في مواجهة التحريف والأباطيل.

لقد **أخذ الصليب هنا دلالة محتلفة غير التي كانت في نصوصه التي تحدث فيها عن الشهيد أو عن المسيحية كدين تعرفه الجزائر والعرب والمسلمون عموما**. إن الصليب هنا شعار القتل والغزو والاحتلال، فليس مدلوله إذن واحدا، فإذا كان هو مرتقى الشهيد ورمز الكنيسة، فإنه قد احمر حياء وخجلا من جرائم الاستعمار. هذا إذن صليب آخر، والاستعمار يستعمله لهدف آخر، يقول:

وأوغر قلبَ الصليب الحقود عُلانا، وأمعَـــن فينا الحسود
وطافت بوهران جيطان غدرا وزيان ما اسطاع جمع الحشود
ولَعلعَ في بربروس نِـــداها فثَـــار.. وأقسم أن لا يعود [52]

إن الثبات والرسوخ والسمو يجعل قلب الصليب (الثاني) يزداد حقدا، وبالفعل لقد غابت صورة الصليب الأول المرتبط بدلالة المحبة والتسامح وحلت محلها دلالة نقيض عن صليب يستعمله المستعمر ويستدعيه من عصور الحروب الصليبية وأطروحاتها. ومادامت فرنسا قد أعادت الحروب الصليبية فإن الشاعر ينتقل إلى موقف آخر من هذه المسيحية (الصليبية)- إذا صحت العبارة- ويستدعي تاريخه هو وثقافته الخاصة لمواجهة الحالة انطلاقا من تلك الفترات القاتمة، فيقول:

سوف لا يعدم الهلال صلاح الدين فاستصرخي الصليب الحقودا [53]

فليس صلاح الدين جزءا من الثورة الجزائرية ولا رمزا من رموزها، إنما يستدعيه الشاعر في موقف الحروب الصليبية التي هزم فيها نفس الصليب المزيف المستعمر واستعاد القدس. وهكذا يرتبط الاستعمار الحديث بالاستعمار القديم وتزييف المسيحية القديم بتزييفها المعاصر، وإذا وجد صلاح الدين قديما فإنه لا محالة سيظهر حديثا أيضا.

و مازال الشاعر يرى أن المسيح بريء من هذا الصليب الاستعماري المزيف، يقول:

هو الحقد طَيَّـر صبـــــرَ الرصا.....ص ، فألهب منه القصاص الفتيلا
وأغضب عيسى، وراع الصليب، فناشـدنا أن نَـــــــردّ المثيـــلا
صرخنا، فلم يعبئُوا بالصـــــراخ، فلم يكُ غير القصـــــاص سبيلا [54]

وبذلك **تحول المسيح إلى داع للثورة ومحرض عليها**، لأنه يغضب مما رآه وما نسب إلى دينه السمح النقي، فيرجوهم القصاص ورد المثل. إن عيسى والمسيحية يدافعان عن دينهم بإبعاد سلوك المستعمر الذي يحاول التماهي مع المسيحية، وحصره في سلوك بشري مجرم لا علاقة له بالديانة، بل إنه يشوهها ويقضي عليها.

لقد بلغ الشاعر نقطة هو بعيد فيها جدا عن التطرف أو التعصب في علاقته بديانة المحتل، بل ومع بلاده أيضا؛ إذ لم ينتج خطاب كراهية شمولي أصولي أو وطني دوغمائي بقدر ما عمل على تفكيك خطاب الاستعمار وإبراز تناقضانه، وإعادة نقاط القوة في ثقافته الذاتية إلى السطح.

لقد قلنا في البداية إن الدين والوطن متلازمان بشكل أو بآخر فلن يستعاد الدين بلا وطن، ولن يكون الوطن بدين مفروض بالقوة، وفي النهاية، تكون استعادة الأرض وزوال الاحتلال عودة لدين الأرض نفسه ومظاهره. إن مفدي يلتقط صورة مسجد (كتشاوة) الذي حولوه إلى كنيسة يوم 05 جويلية 1830، وأقاموا فيه الاحتفال بمباركة الكونت دوبرمون (1773-1846) والبابا قريقوري السادس عشر (1765-1846)، ثم عودته بعد الاستقلال مسجدا كما كان تتعالق مع عودة الوطن بأسره بعد طول اغتصاب، وكأن تاريخ المسجد يختصر تاريخ الجزائر كلها، يقول:

تسامَـــت مصادر إشعاعِـنا تدعّـــم خالص إيماننا
مساجـــد للهَدْي في كل فَجٍّ تنير السبيـــلَ لأجيالنا
.. وجامع كتشـــاوة المستعـاد، أما انفَـكَّ رمزا لإجلالنا
دبرمون هل دام حقد الصليب؟ أنالَ قريقوار من بأسنا؟
وهل فَـــتَّ فيليب في عزمنا؟ وحط القساوس من شأننا؟
وهل نابليون (و) من وَسَمتْـه يداه، استهان بإصرارنا؟
وهل لافيجرِي وطول السنيـــــــن استطاعا المروق بأطفالنا؟
ومهما يقيمُـــون فيه احتفالا فقد عاد يهفُـو لأكبادنا [55]

لقد بقي المسجد وفشلت كل خطط الاستعمار وكل ما اجتهدوا فيه من أجل طمس معالمه وإفراغه من شخصيته الاسلامية بما رفعوه عليه من أعلام وصلبان واحتفالات وتبريكات وبطول المدة التي جثموا فيها عليه وعلى أبنائه. إنه لأمر لافت أن يبقى المسجد صامدا يشع بالهدى محاطا بأبنائه، والحقيقة أنه وطن بأجمعه استجمع قواه الحية واستعاد ذاته العميقة ووقف في وجه الاحتلال، لكن الحرب الصليبية التي بدأت بالمسجد انهزمت تحت مناراته بعدما انكشف الوجه الحقيقي للاستعمار.

4-هل انتصر المغلوب؟

إن مفدي حين ينظر إلى واقعه الجديد بعد الاستقلال، يحس أن شيئا ما قد ضاع أو يوشك أن يتبدل ويضيع. لقد ثبت في التاريخ أن (المغلوب مولع بتقليد غالبه) لكن ثبت أيضا أن (الغالب قد يولع بتقليد مغلوبه) إذا كان أكثر تحضرا منه كما حدث للروم واليونان والمسلمين والمغول، أو إذا كان جزءا من حركة عامة في تغير تاريخي كبير، أو إذا أخذت عملية التثاقف طريق الهيمنة والتحويل. فإذا كان الجزائريون قد انتصروا، فإن تأثير المحتل والغرب فيهم لا يمكن أن يتوقف، لم يكن التثاقف طبيعيا ولم يأخذ الجزائريون وقتهم للتغير والتعامل مع الآخر وفق نظرتهم وظروفهم. إن الأسباب فعلا متعددة، وليست القضية بهذا الاختزال.. والمهم بالنسبة للشاعر أن ما ضحت المجموعة من أجله، وعجز عنه المحتل بالقوة، سيتجه الأبناء إليه الآن بمحض اختيارهم. إنه يرى من بعض بنات بلاده مثالا عن هذا التحول الخطير. يقدم مفدي تقييما لهذا السلوك الجديد كما يلي:

وتفـــــاحة أخرجَـــــت آدما من الخلد، مذ لعنته السما
ولكـــــنَّ حَـــــوَّاءَنا بلعتها وبِالعِلْـــج أبدلت المسلما
..فسحقا لبنت تُـــــزيّف جيلا وتلعن فيها الدماءُ الــدما
وتُغضب عيسى المسيح، وتُبكي على جذع نخلتها مَريَما
وتَـــبًّا لمجتمـــــــــــع خائر تعيش الرجال به كالدُّمى

يموت ويُقبَـــــر فيه الضميـــــــر، ويحمي البريءُ به المجرما
تعالي فرنسا.. ادخُـــلي بسلام فأبناء صُلبك ملء الحمى
غدًا بالزغاريد يستقبلُـــــــون نزولكِ في أرضنا.. بعدما
ويا قادة الشعب.. إن دام هذا أقيموا على شعبكمْ مَأتما [56]

ومثله حين يتحدث عن شباب هائمين:

وفَضَّـــل ماري على مريَـــمٍ و رِيـتَا على زينبٍ والزهور [57]

إن التفاحة محض إغراء، ويبدو له أن الخطأ الذي أخرج آدم من جنة الخلد تلبس بنات الجزائر بعد الاستقلال، فقد استبدلن الرجل الجزائري المسلم بالأوروبي فلا المسيح رضي بما يفعلن ولا مريم ولا بنين الجيل على أصالته، وكذلك فعل شقيقها الرجل الذي استبدل مريم بماري وزينب بريتا. والحقيقة أن مفدي لا يأسى للتغير الذي أصاب المرأة في سلوكها في حد ذاته، بل إنه مفهوم يعود إلى الصراع مع الاستعمار في حد ذاته؛ ولذا اعتبر ذلك موتا لشعب بكامله وصار في إمكان الاستعمار أن يدخل البلد بسلام بل وبالحفلات.

تعكس له هذه المظاهر عودة الاستعمار، تذكره به، فيشمئز منها ويرفضها. ذلك أن صورة الاستعمار ماثلة أمامه في شكل آخر، فالمعركة مستمرة، وحساسية موضوع المرأة تعود إلى كونه مرتبطا بقضية الوطن نفسه، وفي ضياعها ضياعه، ذلك أن صمود الشعب ونجاته من الاحتلال ومكره إنما كان عن طريق امرأة مثلت مصدر قيم الذات والرجولة، ولهذا يقول بعد ذلك عن امرأة جزائرية أخرى:

وحاشاكِ، حاشاكِ بنتَ الأصالـهْ ومَن شَرَّفتْ جنسَها ورجالَـــهْ
.. وناداكِ شعبُـكِ يـومَ التَّنَـــا ..... دي، فشَرَّفـتِ ثورَتَـه ونضالـــهْ
وكنـتِ لحَـواءَ في الخـــــالدا ..... تِ، مثـالاً فريـدًا، عَدِمنا مثالَـــهْ
فمِثلُـكِ من يصنـع الجيل شهمـا ويرعَى استقامتـه واعتدالـــــهْ
ويـزرعُ ملءَ دِمـاهُ اعتِـــدادا يُذيبُ مُيوعتَـهُ وانحـــلالـــهْ
إذا الجيل قَطَّـع أسبـابَـــــه بأمجـاده، فاقطَعَنَّ حبـــــالهْ [58]

هذه امرأة نقيض تماما للمرأة الأولى؛ امرأة تحفظ الجذور، وتشارك في الثورة، وتصنع جيلا شهما أصيلا مكتنز الذات لا يذوب في الآخر فيضيع وطنه.

استنتاجات:

يمكن الوقوف– في النهاية– عند بعض النتائج الهامة:

– إن طبيعة الفعل العنيف للمقاومة يجعلها تلجأ إلى الدين من أجل الاطمئنان إلى ما تقوم به من دفاع عسكري وتتماهى مع شبكة النصوص الدينية والرموز التاريخية، لا سيما وأن احتلال الجزائر

ترافق بحملة إعلامية دينية تأسست على التراث الصليبي وأدبياته؛ ولهذا فإنه من الصعب حقا فصل دافع المقاومة السياسي والاقتصادي عن الثقافي والديني.

– رغم ذلك لم يتبن المقاوم الجزائري خلفية دينية بروح أصولية متعصبة، بل إن برنامجه كان وطنيا تحرريا نابعا من إحساس عميق بالظلم والقهر وبالذل أيضا. لكن خلفيته الدينية شكلت ردّ فعل على الخطاب الصليبي الأصولي الذي رافق الحملة الاستعمارية والذي استخدمته من أجل التعبئة وبهدف تبرير الاحتلال. ومن هنا فقد استعاد الشاعر التراث المقاوم ذي الخلفية الدينية، ليؤسس ثورته على الاستعمار وليس على الدين نفسه.

– إن التماهي مع المنظومة الاسلامية ومكوناتها ذات الصلة بالمقاومة والوطنية تجعله يلتزم باحترام وتقدير الديانة الأخرى، ولهذا **تعامل معها انطلاقا من روح الاسلام في معاملته لها**، وهو ما يجعل هذا الموقف إسلاميا أصيلا إضافة إلى كونه تنويريا...

– لقد قاوم الشاعر الطابع الصليبي للاستعمار فكشف أساليبه واحتياله على المسيحية نفسها بادعاء علاقة ما بها، وهو ما جعله يبحث عن المسيحية الحقيقية التي وجدها لدى فضاء الاسلام، في المشرق وفي الجزائر، ومن هنا استعاد امتلاك المسيحية وسحبها من المؤسسة الكولونيالية، فتحولت بذلك إلى تراث وجزء من الثقافة المحلية الذاتية، مما سمح له بتوظيف رموزها ومبادئها كعناصر ثورية بعيدا عن ممارسة الاحتلال وأدواته التنصيرية.

المراجع:

القرآن الكريم.

ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط. 1، بيروت.

أبو القسم سعد الله: تجارب في الرحلة والأدب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، SNED، الجزائر، ط1982/3،

أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة: مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة ، نشر: العربي الزبيري، SNED، الجزائر، ط1981/2.

بلحيا الطاهر: تأملات في إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ت)

بوجمعة بويعيو: توظيف التراث في الشعر الجزائري الحديث، منشورات مخبر الأدب العربي القديم والحديث، مطبعة المعارف، عنابة، ط2007/1.

التسولي: أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد، تحقيق: عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1996/1.

حمدان خوجة: المرآة ، تعريب: محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP الجزائر، 2006، ص: 172.

خديجة بقطاش: الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830 – 1871، نشر: دحلب، الجزائر، 1992.

الزركلي:الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 83/7 (الميم– محمد غريط).

شاوش حباسي: من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر 1830–1962، دار هومة (د.ت)

عباس بن يحيى: *تحولات المكون الديني في الشعر العربي*، حوليات التراث، جامعة مستغانم، العدد الأول، الجزء الأول، 2004.

فاني كولونا: *آيات الصمود "الثوابت والمتغيرات الدينية في الجزائر المعاصرة*، ترجمة: لطيف فرج، دار العالم الثالث، د.ت.

الفضيل الورتلاني: *الجزائر الثائرة*، دار الهدى، عين امليلة، الجزائر، 2009، ص: 432-433.

محمد الهادي السنوسي الزاهري: *شعراء الجزائر في العصر الحاضر* ط1926/1، المطبعة التونسية، تونس.

محمد غريط: *قصيدة مخطوطة* ضمن مجموع: من الورقة: 411 إلى: 412 بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: 2144د/6 ونسخة أخرى تحت رقم: 3891.

مصطفى الأشرف: *الجزائر، الأمة والمجتمع*، ترجمة حنفي بن عيسى، دار القصبة، الجزائر، 2007.

مفدي زكرياء: *إلياذة الجزائر*، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1983.

مفدي زكرياء: *اللهب المقدس*: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007.

***Baptistin Poujoulat*: *Études africaines. Récits et pensées d'un voyageur*, 1847, Paris.**

***Amar OUZEGANE**: Les pères blancs au service de l'impérialisme français, in: Le jeune musulman, N°2, Juillet 1952, et N°4, Juin 1952, Dar Al-Gharb Al Islami, Beyrouth.*

***Marquis de Clermont-Tonnerre**: Rapport au roi sur Alger.14 Octobre 1827.in: Revue Africaine, Vol 70, Année 1929, OPU, Algérie.*

الهوامش

[1] محمد الهادي السنوسي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر ط1926/1، المطبعة التونسية، تونس. 7/1.

[2] عباس بن يحيى: تحولات المكون الديني في الشعر العربي، حوليات التراث، جامعة مستغانم، العدد الأول، 2004. 70/1.

[3] عباس بن يحيى: المرجع السابق، 71/1. وأبيات نهار بن توسعة في: الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط. 1، بيروت، ص 227.

[4] *Marquis de Clermont-Tonnerre, Rapport au roi sur Alger.14 Octobre 1827. Revue Africaine, Vol 70, Année 1929, OPU Algérie, p: 215 et 253.*

ويتحدث عمار أوزغان عن الصليب الحديدي المغروز في حجر بشارع سان ميشال وقد نحتت على قاعدته عبارة باللاتينية: لقد انتصرنا تحت رمز الصليب 1853 (IN HOC SIGNO VINVES). ينظر:

Amar OUZEGANE: Les pères blancs au service de l'impérialisme français, in: Le jeune musulman, N°4, Juillet 1952, Dar Al-Gharb Al Islami, Beyrouth, p:8.

[5] *Marquis de Clermont-Tonnerre, Cité, P 231.*

[6] *Baptistin Poujoulat: Études africaines. Récits et pensées d'un voyageur, 1847, Paris, 2/114.*

[7] *Ibid, 2/127.*

[8] ينظر مثلا مصطفى الأشرف: الجزائر، الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، دار القصبة، الجزائر، 2007، من ص: 272 إلى 278، والدراسة القيمة لخديجة بقطاش: الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830 – 1871، نشر: دحلب، الجزائر، 1992، من ص: 15 خصوصا. وشاوش حباسي: من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر 1830-1962، دار هومة (د.ت). كل هذا رغم تصريح التعهد غداة الاحتلال في البيان الذي أطلقه الماركيز دي كليرمون تونير (1865/1779) (Aimé Marie Gaspard de Clermont-Tonnerre) وحرره بالعربية المستشرق الشهير سيلفستر دي ساسي Sylvester de Sacy (1758-1838) والذي تضمن فيما تضمن: " ثم إننا نضمن لكم أيضا ونعدكم وعدا مؤكدا غير متغير ولا متأول أن جوامعكم ومساجدكم لا تزال معهودة معمورة على ما هي عليه الآن و أكثر، وأنه لا يتعرّض لكم أحد في أمور دينكم وعبادتكم"، ورغم البند الخامس من معاهدة الاستسلام التي وقعها الكونت دي بورمون والداي حسين، ينظر: المرآة، حمدان خوجة، تعريب: محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP الجزائر، 2006، ص: 172. وينظر:

Amar OUZEGANE in: Le jeune musulman, N°2, Juin 1952, p:8.

[9] مذكرة حمدان خوجة سلمها إلى اللجنة الافريقية سنة 1833. ينظر: مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، نشر: العربي الزبيري، *SNED*، الجزائر، ط1981/2، ص: 153-154.

[10] أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد، تحقيق: عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط1996/1، ص: 102.
[11] هو الوزير: محمد بن محمد غريط الأندلسي نسبة إلى أصله. ولد بمكناسة وبها تعلم، ثم انتقل إلى فاس، تولى الوزارة مرتين، وتوفي سنة: 1863. ينظر الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، 83/7 (الميم- محمد غريط).
[12] الورقة: 1، من القصيدة المخطوطة ضمن مجموع: من الورقة: 411 إلى: 412 بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: 2144د/6 ونسخة أخرى تحت رقم: 3891.
[13] ابو القسم سعد الله: تجارب في الرحلة والأدب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983 ص:114. ومحمد بن الشاهد هو علامة وشاعر عاصمي (1844/1733).
[14] فاني كولونا: آيات *الصمود* "الثوابت والمتغيرات الدينية في الجزائر المعاصرة، ترجمة: لطيف فرج، دار العالم الثالث، د.ت، ص: 43.
[15] مصطفى الأشرف، م.س، ص: 47. وعن المقاومين الأوائل ينظر: أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، SNED، الجزائر، ط1982/3، ص: 85 وما بعدها. ويوضح الأشرف أن نداء الجهاد ليس تعصبا بل هو من أجل دفع الناس إلى "خوض غمار حرب فرضها الأجنبي الدخيل "، ص: 50.
[16] إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1983، ص: 51. ويقول أيضا:
إرادة الشعب، إن تصدق عزيمته إرادة الله، يجري باسمها القلـــــم
ما بين - كاف ونون- قالها رجل فكان.. وانْهَار ما خَطوا وما رسموا
اللهب المقدس: مفدي زكرياء، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007، ص: 252.
[17] إلياذة الجزائر، ص: 52. ونفس الفكرة في اللهب المقدس: 230.
[18] أي قوله تعالى: {إنَّ اللهَ اشترى من المؤمنينَ أنفسَهم وأموالَهم بأنَّ لهمُ الجنة يقاتلُون في سبيلِ الله}. القرآن الكريم، سورة: التوبة 111.
[19] اللهب المقدس: ص: 56.
[20] إلياذة الجزائر، ص: 89.
[21] بلحيا الطاهر: تأملات في إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ت)، ص: 140. ويرى بوجمعة بوبعيو أن الطابع الديني يعود إلى تصدي شعراء المرحلة للتشويه والتغريب. ينظر له: توظيف التراث في الشعر الجزائري الحديث، منشورات مخبر الأدب العربي القديم والحديث، مطبعة المعارف، عنابة، ط2007/1، ص: 61.
[22] لنلاحظ أن الأمير عبد القادر وهو مقاوم آخر بل ومن رموز التدين، كانت له يد بيضاء على المسيحيين في الشام، رغم أن الاستعمار ادعى تمثيل وخدمة المسيحية باحتلال الجزائر.
[23] إلياذة الجزائر، ص: 20.
[24] اللهب المقدس: ص: 100.
[25] اللهب المقدس: ص: 256.
[26] اللهب المقدس: ص: 29.
[27] اللهب المقدس، ص: 273.
[28] اللهب المقدس، ص: 277.
[29] اللهب المقدس، ص: 203.
[30] اللهب المقدس، ص: 144.
[31] إلياذة الجزائر، ص: 42.
[32] اللهب المقدس، ص: 39.
[33] اللهب المقدس، ص: 256.
[34] اللهب المقدس، ص: 17.
[35] القرآن الكريم، سورة: آل عمران، الآية: 169.
[36] القرآن الكريم، سورة: النساء، الآية: 157.
[37] الياذة الجزائر، ص: 23. حيدر: مرخم (حي حيدرة). وأم أو سيدة إفريقيا كنيسة معروفة.
[38] الياذة الجزائر، ص: 40. القديس أوغسطين أو أوغسطينوس، أسقف عنابة (بونة) معروف وكتابه (الاعترافات) شهير.
[39] اللهب المقدس، ص: 171.
[40] اللهب المقدس، ص: 129.
[41] اللهب المقدس، ص: 130.
[42] اللهب المقدس، ص: 132.
[43] الفضيل الورتلاني: الجزائر الثائرة، دار الهدى، الجزائر، 2009، ص: 432-433.
[44] الفضيل الورتلاني: الجزائر الثائرة، ص: 434 إلى 440.
[45] الإلياذة ص: 53.
[46] الإلياذة ص: 80.
[47] اللهب المقدس، ص: 53
[48] هكذا وردت، وربما سقطت كلمة: بنا، أي: وأحرى بنا أن نبشر فيكم.
[49] الإلياذة ص: 103.
[50] الإلياذة ص: 49.
[51] الإلياذة ص: 102.
[52] الإلياذة ص: 52.
[53] اللهب المقدس، ص: 23.
[54] الإلياذة ص: 79.

[55] الإلياذة ص: 91.
[56] الإلياذة ص: 105.
[57] الإلياذة ص: 108.
[58] الإلياذة ص: 107.